

« ثورة المجاهد عبد الكريم الخطابي »

من حق الشباب المغربي أن يأخذ فكرة عن الندوة في ذكرى وفاة
أسد الريف الثالثة عشرة

ابتداء من 17 ويناير 73 ولمدة ثلاثة أيام نظمت بباريس ندوة علمية كبرى حول ثورة الريف التي قادها المجاهد الريف عبد الكريم الخطابي. لقد مضى على هذه الندوة العلمية والعلمية أربع سنوات، لكنها مع ذلك تبقى ذات أهمية كبرى خصوصا وأن القارئ المغربي لم يتمكن من الاطلاع على خلاصة كافية لآراء وأفكار والتقارير التي قدمها أعضاؤها من قبل شخصيات فكرية بارزة. وقد كانت «المحرر» قد تلقت عقب الندوة بطلب من مراسلة من باريس إلا أن ظروفنا معينة حالت دون اطلاع قراء «المحرر» عليها. وبمناسبة ذكرى وفاة المجاهد الخطابي الثالثة عشرة رأينا أن من حق الشباب المغربي حيال معلم من معالم تاريخه الوطني الحي أن يطالع عن خلاصة ندوة باريس العلمية، لهذا قررنا إدراج المراسلة المذكور بعد أن أخذنا عليها بعض التعديلات ولعلنا لا يكون هذا التعديب الاضطراري قد أدخل جوهر الأفكار التي تضمنتها المراسلة.

الشمالى. وليس إلى رغبة دافئة مزعومة في الانتقام.

عن التكوين الاجتماعي الريف وعلاقته بالثورة. قدم البروفسور الأمريكى هارت، المعروف بالخصوص بـ: «تريته عن «الشرادمية»، دراسة عن المجتمع العشائري في الريف، شرح فيها نظام قائمة على وشائج الدم والقرابة، وبين كيف أن هذا النظام أتاح لمحمد بن عبد الكريم الخطابي، وهو من عشيرة بني ريباغ، أكبر عشائر المنطقة أن يصبح زعيما للريف. وقد تدخل عدد من الحاضرين ليؤكد أن ينبغي صحة التفسيرات القائمة على مبدأ «الشرادمية». وذكر الأستاذ عبد الله العروى، في تعليق سريع على هذا الموضوع «إن الذي ينبغي تفسيره هو التوازن، وليس التغيير، لأن التغيير يسهل شرحه» وكان الجدل حول الشرادمية، التي تفسر الحياة الاجتماعية بعوامل ميكانيكية داخلية تدور في إطار مغلق، مناسبة للتساؤل عما إذا كان الريف حقا هو ذلك المجتمع المغلق الذي يصوره «الشرادميون»؟ يتضح من الترافخ الكلامي القصير، الذي جرى حول هذه النقطة بين «الشراديين» وخصومهم، أن الريف كان مفتوحا على العالم من خلال اتصاله غربا وشملا بالثغور الأسبانية وشرقا وجنوبا بالجزائر وبقية المغرب، ولكن هذه الاتصالات التي تتم عن طريق المبادلات التجارية في الأسواق والمواسم، كانت تدفع بهذا المجتمع إلى تعزيز بنايته وخصوصياتها الجوهرية.

كان ذلك هو الاطار الطبيعي: إندواجية الانفتاح والانغلاق. التفاعل مع المحيط والاحتفاظ بالشخصية المحلية، الذي ينبغي أن توضع وتتم ضمنه شخصية محمد بن عبد الكريم الخطابي، وكان من المقرر أن يقدمه الأستاذ رمان عياش دراسة خاصة حول التكوين الفكري للرجل، ولكن وعكة صحية مفاجئة ألمت به ومنعته من الحضور، وبهذا الغياب فقدت الندوة مساهمة. تأسف علينا الجميع وقد سمعنا عددا كثيرا من المتحدثين يكرسوه على عدم توفر بحث كامل عن شخصيته في صميم الندوة. الدستور في مفهوم عبد الكريم الخطابي وإثره، فإن الجهود استنبت على النواحي الموضوعية للثورة الريفية، وإذا كان غياب عياش قد حرمانا من التعرف على الملامح العقائدية للرجل الذي قاد الحركة، فإن دراسة الأستاذ عبد الرحمن اليوسفي،مكننا من التعرف على ما قام به في ميدان بناء الدولة.

يبدأ الأخ اليوسفي دراسته قائلا:

« إن التجديد السياسي الذي جاء به عبد الكريم كان محاولة لحل الإشكالية المغربية للدولة والواقع أن المغرب ظل يستنزف نفسه منذ قرون في مواجهة صارمة بين «بلاد المخزن» و «بلاد السبيبة»، وهي تظاهرة درامية لمعارضة الجماهير المغربية العميقة لنظام المخزن، تلك النسخة المحرقة عن المفهوم الإسلامي للدولة. لقد حاول عبد الكريم تكثيف المفهوم العصري للدولة استنادا إلى التشريعات النسبية التي بلورها مؤسسو دولة المدينة، وهي تشريعات تتنجم مع التقاليد الديمقراطية والجماعية للشعب المغربي، ولم تكن تجربة ثورة الريف قطيعة مع التقليد المخزني فحسب، ولكنها كانت محاولة للملاءمة بين ما هو صالح في التراث الاجتماعي الثقافي المغربي، وبين مكتسبات المجتمع السياسي المعاصر، وإذا اعتبرنا أن حالة السبيبة، أي حالة التمرد كانت الرد الشعبي على النظام المخزني الجائر والتسلطى، فإن عبد الكريم قد اختار المحصلة الجدلية للظاهرتين، أي أنه عن طريق بناء هياكل الدولة العصرية قد نبذ في أي واحد ضلالات المخزن «وسلبية السبيبة».

عنوان: « ندوة دولية سوسيو تاريخية بمناسبة مرور خمسين عاما على الثورة الريفية » قد تطلبت اعدادا طويلا، قام به الأخ عبد الرحمان اليوسفي، وانتهى إلى حضور أساتذة من جامعات أوروبا وأمريكا والعالم العربي. وكان من المنتظر أن نتعقد الندوة في السنة الماضية، ولكنها أجلت بسبب تأخر عدد من المشاركين في تحضير الدراسات التي التزموا بها. وأخيرا تم انعقادها، تحت رئاسة المؤرخ الفرنسي الكبير سارل اندري جوليان، السيد السابق لكلية الآداب بالرباط وقد حضر عدد كبير من الاساتذة الفرنسيين المختصين في الدراسات العربية والإسلامية أمثال: رجحي بلاشير، أستاذ الأدب العربي السابق في جامعة السوربون، الذي تحدث عن دور عبد الكريم الخطابي، في حركات استقلال المغرب العربي، والمستشرق فنسان مونتاى الذي تحدث عن الحرب الثورية، وجيرون وقد تحدث عن موقف الاشتراكيين من الحرب الريفية، وغالسيو وقد خصص دراسته لموقف الحزب الشيوعي من حرب الريف الخ... ويتبين من الاسات التي تناولت موقف الرأي العلم الفرنسي، أنه كان هناك إجماع من طرف الاشتراكيين على اتخاذ موقف سلبي، أو لامبالي على الأقل من أحداث الريف. وقد شد الشيوعيون وخدمهم عن هذا الإجماع، وشنوا حملة دعائية واسعة ضد الحرب.

نفس الموقف نجده في اسبانيا، أي أن الاشتراكيين هنا أيضا لم يتقدوا الحكومة لشنها الحرب، وإنما انتقدوها من مواقع يمينية وأخلاقية، والفرق بين اسبانيا وفرنسا هو أن الحزب الشيوعي في الريف، لم تكن له قوة حقيقية بعد، وذلك ما شنته الأئمة مادريغا، مضيق أن الحركة العمالية كانت خاضعة آنذاك للتيار القوضي الاشتراكي، وكانت مفتومة بالمشاكل النقابية، إلا أن حرب الريف كان لها بالمقابل دور حاسم في تدوير الأوضاع الأسبانية الداخلية، وقد تناول هذا جانب المؤرخ الشاب مايير، الذي لاحظ أن شكنتورية بريمودى ريفيرا ولدت من حرب الريف، وأن الجنرال فرانكو ورفاقه، قرروا الاستيلاء على السلطة بسبب شعورهم بالاهانة بعد الفرائم التي لحقت بالجيش الأسباني، أي شمال المغرب. أي أن الحرب الأهلية، ثم ميلاد وانتصار النظام الفاشي في الضفة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط، أحداث وضعت بذورها في معركة أنوار، ويذكر نفس المؤرخ أن المغاربة، الذين اعتمد عليهم فرانكو في غزوه لاسبانيا، وتخليه للثورة، كانوا يقومون بانتقام متأخر، هم أيضا، وقد أشار إلى أنه سمع هذا التفسير من أحد المغاربة الذين شاركوا في القوات النظامية الفرنسية.

الشرادميون والمجتمع الريفى

أثارت هذه الفكرة الاديب التقدمي دانيال غيرين، الذي انتقد على مايير ماسماه قفرتة في الفضاء، وقال: إن أصل الفاشية في اسبانيا يعود إلى رفض هذه الأخيرة اعطاء الاستقلال للمغرب

في التاريخ العربي والمغربي شخصيات فكرية سياسية تلفها هالة سميت من الرموز والسحر، والعظمة، تعيش في ذاكرة الأجيال، ويملك عنها الناس صورا ترقى بأضحاها طورا إلى مستوى الأنبياء أو تعبد بهم قليلا إلى مستوى الأبطال العظيم. صوب الاقتراب العلمي من هذه الشخصيات، امرأ صعا جدا، خاصة إذا كانت المواضيع المثارة يمكن أن تجر السامع أو القارئ إلى استنتاجات وخلاصات تتصل بأوضاع راهنة، وأفاق مرتبة أو متراثة.

محمد بن عبد الكريم خطابي، واحد من هذه الشخصيات، ولقد اتى الطلاب الهاربة المقيمين في باريس، خلال ثلاثة أيام شمالية (18 و 19 يناير 1973) أن يعيدوا مع بظك ثورة الريف، وذلك في إطار الندوة العلمية السوسيو تاريخية التي نظمت في دار المغرب بالحي الجامعي، تحت إشراف الأخ عبد الرحمان اليوسفي، والأخ المهدي العلوي لحياء الأذى الخمسين لثورة الريف، طوال هذه الأيام امتلأت قاعات الاجتماعات الكبرى بمجموع من الشباب المغربي، كان يستمع معان وقصو إلى التدخلات والمنقشات، شارك فيها أحيانا، وكانت القاعة مزينة بصور الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي وثورة الريف، وينسخ مصورة عن مقالات خصصتها له جريدة التحرير بعد وفاته، ويقتطفات من أقوال له، هوشي منه، عن حرب الريف.

كانت هذه الندوة تاهرة فكرية جذبة ليها أهم الأسماء الامة في ميدان التاريخ والجغرافيا والسوسيو ليا من لهم اهتمام مباشر بالمغرب في فرنسا والمغرب والعالم العربي واسبانيا والولايات المتحدة، وقد بدأت ندوة بمحاضرة عن جغرافيا الريف، يمكن إيرادها بمائة الأرضية التي ستنبئ عليها روح والتفسيرات المتصلة، ذا الحدث العام.

غزارة المادة المدونة في الندوة و عما (70 تقريرا) تجعل من المستحيل في اسلة كهذه، تقديم فكرة واقية عنها، ولأن الباع العلمي، أن لم نقل أكاديمي، وهو حسنة يجب تسجيلها، ساد النص المقدمة، فإن ما نتعا واستعراضها بالترتيب، الذي قدمت به، مكن أن يتم في حدود غال سريع كهذا، سوف نكتفي هنا بالإشارة إلى عناوينه الهوض الرئيسية والمور، من الكرام، بالأفكار الراهية الواردة فيها، لنذكر بعد ذلك على أربع مساهمات اعتبرها جميع الحاضرين، أهم ما قدمه في الندوة وهي دراسة للاستاذ عبد الرحمان اليوسفي بعنوان: مؤسسات الثورة الريفية، وتدخل البروفسور (جاك بيرك) حول الاطار العربي لحركة عبد الكريم الخطابي، ومساهمة الاستاذ عبد الله العروى حول علاقة الحركة الوطنية بثورة الريف، ودراسة السيدة مغالى مرسى عن الطابع الراهي لعبد الكريم.

ولدت الفاشية في حرب الريف

قبل ذلك لابد من تسجيل ملاحظة أولى، وهي أن هذه التظاهرة الفكرية التي نظمت تحت

باريس تحنن منذ أربع سنوات ندوة علمية حول : « ثورة المجاهد عبد الكريم الخطابي »

من حق الشباب المغربي أن يأخذ فكرة عن الندوة في ذكرى وفاة أسد الريف الثالثة عشرة

بعد تحليل نظام المخزن والفرق بينه وبين مفاهيم الدولة الحديثة، ونمو مؤسسات الثورة الريفية، استعرض الاستاذ اليوسفي بياننا مكتوباً كان المجاهد عبد الكريم الخطابي قد نشره بالقاهرة في تاريخ 30 نوفمبر.

وفي هذا البيان حلل المجاهد الخطابي الدستور الممنوح لعام 1962، وأوضح مافيه من ثغرات واختلال في توازن السلطات وحذر من عواقبه الوخيمة على مستقبل البلاد. ويلاحظ الأخ عبد الرحمان اليوسفي، أن هذا النص الذي حرر بعد مرور 40 سنة على إعلان الثورة في أجدير، يتضمن نفس المبادئ التي أسست عليها الدولة الريفية، ويشير في موضع آخر من نفس الدراسة إلى الإصلاحات الجوهرية التي ادخلها الخطابي على الريف ومنها فرض اتباع الشريعة بدلاً من القانون العرفي القائم على العصبية الدموية، وإلغاء نظام الرق الذي كانت تمارسه قبائل صنهاجة، وتقسيم السلطات وتحديدها إلخ...

في ميدان آخر، أدخل عبد الكريم تحديداً هاماً، يعتبر ثورياً وطيبياً في ذلك الوقت، حينما اعتمد على الجماهير الشعبية لبناء أداة حرب التحرير الوطني. وكان اختياره في هذا الميدان مناقضاً على طول الخط للممارسات المخزنية البيروقراطية، وكان العامل الأول في نجاح عبد الكريم هو الطريقة الجديدة التي اتبعها في تنظيم الجيش الشعبي الفلاحي.

وقد شرح الأخ اليوسفي أساليب التنظيم العسكري عند الخطابي، وطريقة الحصول على الأسلحة (من العدو طبعاً) وتوزيع المسؤوليات والترتب، ثم تساءل عن أسباب فشل الثورة الريفية واعتبر العامل الحاسم فيها هو التفوق

العسكري والتكنولوجي للقوى الاستعمارية الأوروبية، ولكن كانت هناك أسباب سياسية يقول عنها المحاضر:

« ان السبب الأساسي الذي تجدر الإشارة إليه هو ان الجهاز الحكومي للثورة الريفية بقي ضعيفاً ولم يستفد من دعم النخبة المغربية. ولم يتلق أية مساعدة مباشرة أو غير مباشرة من المؤسسة (الاعيان والوجهاء المثقفون أو الطرقيين والاقتصاديين). وإذا كتب الرعاء الفلاحيون المقاومون الى عبد الكريم وأرسلوا إليه الرسل، فإنما ليطلبوا منه المساعدة.

«ولا شك أن عدداً من هؤلاء الاعيان، شارك في المقاومة الموجهة ضد الحماية المفروضة في صورة أمر واقع والتي تضمنها مخطط تايانديبي لسنة 1904 ولعبوا دوراً أكثر فعالية في الثورة السياسية التي أدت إلى عزل السلطان عبد العزيز عقب توقيع اتفاق الجزيرة. الا أن هذه الفئة أظهرت نوعاً من السلبية أثناء المقاومة الشعبية للحماية، وسوف يكون «التنصل» أكثر وضوحاً بعد اعلان ثورة الريف وانطلاق حرب التحرير من جديد، وكان لهذه الحوادث وقع كبير ليس فقط بين جماهير الفلاحين ولكن أيضاً في صفوف شباب المدن. أما الاعيان فلم يظهروا سوى المخولف والتردد ازاء «الريفي».

حوار الصم بين علال الفاسي وعبد الكريم الخطابي

تلك الخلاصة مبسرة لما ختم به الأخ اليوسفي دراسته. ومنها أو معها ننتقل إلى موضوع علاقة الحركة الوطنية بالحرب الريفية، الذي تناوله الاستاذ عبد الله العروى. ان تدخل الاستاذ العروى في هذه الندوة مختصر جدا

ولكنه كان مفيداً جداً، وقد تقيد بالوقت المخصص له - وهو ربع ساعة - لالقاء الضوء، على هذه النقطة التي ما تزال تكشفها الظلال من كل جوانبها ولاستاذ العروى رأى محدد، عبر عنه في كتابه: «تاريخ المغرب»، وعاد ليطرقه هذه المرة بناء على تحليل وثيقة مأخوذة من مجلة المنار وفقرة من كتاب الاستاذ علال الفاسي، عن الحركات الاستقلالية في المغرب العربي. ولأن تدخل الاستاذ العروى كان شفوياً وسريعاً، فأنا أكتب عنه نقلاً عن الذاكرة، وعن خريشات موضوعة بقوضى فوق الورق.

الفكرة الأساسية في تدخل مؤلف الايديولوجية العربية المعاصرة، هي أن الحركة الوطنية ذات الاصول السلفية، تجاهلت حركة عبد الكريم الخطابي، فلم تدرسها ولم تهتم بها. وعندما حاولت أن تتدارك هذه الثغرة (من خلال مقالة المنار وفقرة كتاب الاستاذ علال الفاسي) لم تتجه نحو فحص دقيق للاحداث واستخلاص العبر منها، وإنما توقفت عند النقد السلفي أي أن النسخة الكلاسيكية من الحركة الوطنية أخذت من الثورة الريفية، ماسبق أن أعطته اياها من أفكار سلفية. ومعنى هذا أن اكتشافها لها كان في الحقيقة اكتشافاً لنفسها هي. لاغير. ولذلك بقيت غريبة عنها. وينتقل الاستاذ العروى بعد ذلك إلى المواجهة التاريخية التي جرت بين الرمزيتين اللامعيتين للثورة الريفية والحركة الوطنية التقليدية، أي عبد الكريم الخطابي وعلال الفاسي. لقد تقابل الرعيان الكبيران اللذان ينتميان إلى جيل واحد ويتكلمان لغة واحدة، في القاهرة، وتحدثا طويلاً، مرات ومرات، ولكن التيار لم يسر بينهما. كانا يرددان لفظة واحدة، دون أن يتفاهما.

وهنا تكمن المعضلة التي يتحتم على الأجيال المغربية الصاعدة حلها. لقد توقف عبد الكريم بعد هزيمته عسكرياً، وحط الاستاذ علال الفاسي رحاله عند طاولة المفاوضات، وذكر الاستاذ العروى مناقشة جرت منذ مدة بينه وبين رئيس حزب الاستقلال حول علاقة الحركة الوطنية بالثورة الريفية وكيف أن الاستاذ علال الفاسي انتقد الخطابين لأنهم لم يشيدوا مدارس، وأن الوطنيين علموا الشعب، وكيف رد عليه الاستاذ العروى بقوله: «انكم لم تكونوا سوى معلمى مدارس»، ثم ختم حديثه قائلاً: «ان علينا نحن أن نلتقط خطاب عبد الكريم وعلال الفاسي من حيث توقفا»، أي علينا أن نكمل المسيرة.

لعل أنسب خاتمة تكمل بها هذه المراسلة هي الإشارة إلى الكلمة التي ألقاها البروفسور جاك بيرك، عن الحوادث المعاصرة لثورة الريف في العالم العربي. لقد تحدثت المستشرق الكبير عن انتفاضات ثورية مماثلة حدثت في نفس الفترة بليبيا ومصر وسوريا والعراق وبين الصلة بينها وبين حركة الأمير عبد الكريم الخطابي من حيث أنها تدخل ضمن ما يسميه دينامية الكتل الاجتماعية، ومعاصرة الثورة الريفية للجمهوريات الزراعية أو الثغورية الأخرى في عدة بلدان عربية هي أكثر من مصادقة تاريخية. انها أيضاً تطلع من جماهير الفلاحين نحو امتلاك مصيرهم بأنفسهم وقد ذكر جاك بيرك في بداية كلمته: «ان قيمة البطل لا تكمن فيما صنعته فقط، ولكن أيضاً فيما لم يصنعه»، وهي كلمة تستحق أن نتأملها بجد.